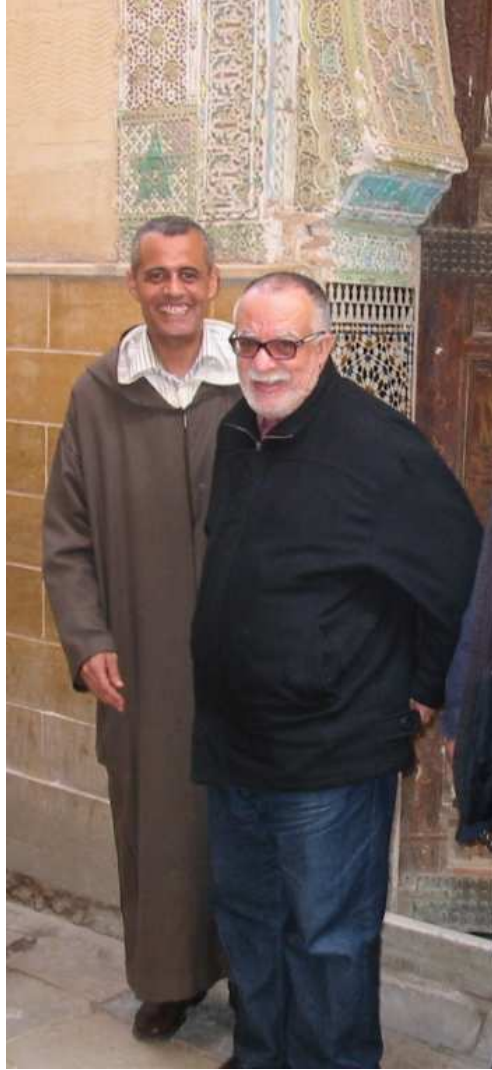


السر الباهر

في الرحلة مع سيدي محمد الطاهر



ذ : محمد الراضي كنون

الحسني الإدريسي

رقم الإيداع القانوني

ردمك

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة

تأليف: ذ محمد الراضي كنون الهاتف ... 0661683399

الموقع الإلكتروني: www.cheikh-skiredj.Com

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم

الحمد لله الذي أنعم على أوليائه بالمدد الباهر ، وأفاض عليهم نفائس علم الباطن والظاهر ، من اتصف بالعفو والمغفرة رحمة وحلما ، ووسع كل العالمين رأفة وعزة وعلما ، خالق الأكوان وموجدها من العدم ، الذي له الإرادة والقدرة والقوة والقدم ، وهو الذي يرد عنا القبيح والسوء ويدفعه ، وإليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والصلاة والسلام على من خلقت من نوره جميع الأكوان ، من إنس وجن وملائكة وأعوان ، الذي كسر دين الكفر وهدم ، وفتح الأغلاق وأخرجها من عدم ، حجة الله على من عاند وكفر ، وسيفه الموعود بالنصر العظيم والظفر ، من حارب الظلم والغي ومنع ، ورضي بالقوت القليل وقنع ، الداعي إلى الله بدين ليس فيه حرج ، الذي أسرى إلى ما فوق السماء السابعة وعرج ، سيد أهل السلف والخلف ، من به في القرآن أقسم الله وحلف ، فمن آمن به استقام امره وانضبط ، ومن جاحده خاب عمله وانحبط ، الصراط المستقيم ، صاحب المنهج القويم ، سيد الوجود ، والسبب في كل موجود ، مولانا محمد بن عبد الله ، القائم بأمر الله ، صلى الله عليه وعلى آله ما ازينت موائد الفطور ، وطابت العطور ، وسطرت على الأوراق السطور ، وعليه وعليهم سلام ممزوج بالأرج ، ما دخل الليل وخرج ، وسقط العسر وجاء الفرج ،

ثم السلام على مقام شيخنا أبي العباس التجاني ، منقد من تمسك به من كل
عاص وجاني ، القطب المكتوم، والرمز المختوم ، سيد الأولياء الكبار ، وإمام
السادات الأعبار ، الغني عن التعريف ، صاحب السر والتصريف ، من كان
لسانه بذكر الله رطبا ، إلى أن صار غوثا كبيرا وقطبا ، ذي الكرامات التي
لا حصر لها ولا إيقاف ، ورجل المقامات من قاف إلى قاف ، العارف الخائف
الواجل ، صاحب الدليل والبرهان العاجل ، المتخلق بسنة جده الماحي ، السيد
الشهير المستيقظ الصاحي ، الذي به كرمت مدينة فاس ، وتعطرت من أنحائها
جميع الأنفاس ، فرضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به آمين .

والمراد بذكر هذه الرسالة المختصرة ، وإن كانت على القليل من الأحداث
مقتصرة ، هو تدوين ما يمكن تدوينه من هذه الرحلة البديعة ، وهي أمانة
علمية ووديعة ، ولهذا اخترت كتابتها مباشرة بعد المجيء من السفر ، وكان
ذلك في غضون شهر صفر ، وسميتها بالسر الباهر ، في الرحلة مع سيدي
محمد الطاهر ،

التعريف بالشريف سيدي محمد الطاهر

هو الشريف الأثيل ، عديم المثيل ، صاحب النفس العفيفة ، والروح الخفيفة ،
ذو البصر والبصيرة ، من كل المقامات دون علاه قصيرة ، أملح الملاح ، الذي
من محياه أضاء الشعاع ولاح ، صاحب الحسب والنسب ، وخير من جمع
الفضائل وكسب ، الذي أحرز المعالي أفضل إحراز ، ونال من الخلال أرفع
طراز ، من حافظ على وداد أحيائه وحرص ، وأما أعداءه فقد سلط الله عليهم

الهم والغم والبرص ، المتقلد بالأدب الرفيع ، وسليل النبي الشفيح ، سيدنا محمد الطاهر ، صاحب السر الباطن والظاهر .

ولي ولله الحمد صحبة مع هذا الشريف منذ تاريخ طويل ، وهو من المتنزهين عن الغيبة والنميمة وما يتبع ذلك من الأقاويل ، وقد طلبت منه ان يرافقني خلال رحلتي لمراكش الحمراء ، بعدما راودتني في ذلك أفكار وآراء ، فلبى طلبي وأجاب ، وكشف عني الحجاب ،

تعرفني على الشريف سيدي محمد المهدي الكنسوسي

خلال شهر محرم الحرام ، من أشهر هذه السنة العظيمة المرام ، سمعت بالشريف الكنسوسي سيدي محمد المهدي ، وانه تجاني غيور محافظ للود والعهد ، فصممت أن أزوره ، لكي أستنشق زهوره ، فحددت لذلك موعدا مضبوطا ، لاصعود في تاريخه ولاهبوطا ،

ومن حسن الصدف أنه اتصل بي قبل ذلك ، فأطربني بحديثه المحبوب لدى كل مجذوب وسالك ، وكان اتصاله بي بواسطة الهاتف الجوال ، فعلمت منه انه شهيم كريم صوال ، فذلك الغصن من تلك الشجرة ، إذ ليست الأبرار كالفجرة ، وكانت المكالمة المذكورة على مدا ثلاثين دقيقة ، مزجت بالتحايا الصادقة والعبارات الرقيقة ، وذكر لي أنه دخلت يده نسخة من كتابي المسمى برسائل العلامة القاضي الحاج احمد سكيروج ، وأنه سر بها غاية السرور وفرح ، وحصل له باقتنائها نشاط ومرح ، وقال لي ينبغي لك أن تقدم عندي لمحفل عملي بمدينة القنيطرة ، إذ أن حرارة الشوق بيننا كبيرة ومسيطرة ، فلبيت على الفور طلبه ، وما واجه الحب قلبا إلا غلبه ، واستقبلني بقر مكتبه الكبير ،

حيث تشتمل سمات العبير ، فتبادلنا الحديث حول مواضيع مختلفة ، من نصوص وتقاييد حاضرة وسالفة ، فأعجبت كثيرا بذكاء الشريف المذكور ومواقفه الفاضلة ، وزاد من إعجابي حماسه الكبير وشجاعته المناضلة ،

وبعد ذلك أطلعني على كتاب النقطة للعارف بربه سيدي عبد الله الغزواني ، فتصفح بعض أوراقه في دقائق وثواني ، وهو تأليف قيم جمع الحقائق ووجز ، وحارفي حل رموزه أكبر العلماء وعجز ، وللشريف المذكور اهتمام وولوع بهذا التأليف ، وذلك من باب التشريف لا التكليف ، وقد نسخه في مجلد كبير بخط يمينه ، مما يدل على صدق طوبته ويقينه ، ثم رقنه بالآلة الكاتبة في ما تئتين وخمسين من عاظر الصفحات ، فجاء الكتاب بعدها في حلة من النفحات ، وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث بحرارة ، دون مبالاة بالوقت وماله من مرارة ، إذ استأذن للدخول علينا المقدم الحاج الحسن ، الأمر بالجد والناهي عن الوسن ، وهو مقدم الطريقة التجانية بزواية الخبازات بالمدينة المذكورة ، وحاله يقول أفلا أكون عبدا شكورا ،

ثم شربنا الأتاي وعلينا أسمى الحلل ، غير مكترتين بالأوهام والعلل ، فتطرقنا للكلام حول بعض المسائل الطويلة والعريضة ، بعدما أدينا واجب صلاة الفريضة ، وخلال الحديث ذكر لي الشريف سيدي محمد المهدي رغبة أخيه سيدي جعفر الكنسوسي في تنظيم ندوة حول شخصية العلامة سكيرج رحمه الله ورضي عنه ، فرحبت بالفكرة وقلت سأحضرها في الحين ، ولو أقيمت ببلاد الصين ، لما فيها من رضا الله ونيينا ، ولسعة فضل العالم المذكور خلقا وخلقنا ودينا ، فضرينا لها موعدا على عجل ، وحددنا لذلك تاريخا في أجل ،

ثم عدت للرباط خلال ذلك المساء ، غير مبال بمن أجاد السير أو أساء ، وبعد يومين من تاريخ هذا الإجتماع الحفيل ، الذي هو بكل خير وسرور كفيل ، هاتفني الشريف سيدي محمد المهدي ليخبرني بأني مدعو معه لحضور مأذبة غداء عند بعض أصدقائه بالرباط ، وهي مناسبة للإنبساط والإغتباط ، وطرد الهموم والغموم والإحباط ، كما أنها فرصة لتعريقي برفاقه المذكورين ،

أولهم : صاحب الوليمة ، الشريف الأثيل ، القليل المثيل ، سيدي أحمد بنعرفه ، وهو ممن هزم الشيطان وصرفه ، وخير اموره الوسط ، وما من بر وإحسان إلا وقد مد يده فيه وبسط ، وله معرفة واسعة بمسائل القرآن وحقائقه ، وعلومه ومعانيه ودقائقه ، وقد استمتعت مرارا بسماع بعض فرائده العالية وفوائده الغالية ، مما يدل على تمكنه وعلو قدمه ، واهتمامه بالكون وما له من وجوده وعدمه ، والحق أن هذا الرجل ممن إلى الله جنح ، ولهذا أكرمه وسنح له ما سنح له ، وصدق ربنا إذ يقول ، وهو اكرم مسؤول: واتقوا الله ويعلمكم الله .

الثاني : شقيقه الأستاذ الشريف ، والشاعر الظريف ، المعروف بالعتاء والجدود ، المتعطر بروائح المسك والعود ، من حاز أمهات المقامات وغنم ، وكفر بكافة الأوثان والصنم ، الصالح التقي ، المتواضع النقي ، الذي سما بين الرجال ورجح ، وحمد سعيه فيهم ونجح ، عبدالإله بنعرفه ، من شرب الفهم وغرفته ، فنال الحاجة والغرض ، وشفاه الحق من كل مرض عرض ،

وحضر معي في هذا الجمع الزاهر ، مولانا الشريف سيدي محمد الطاهر ، بالإضافة للفيق سيدي أحمد المسكيني ، ذي الشرفين الديني والطيني ، وهو من قبيلة السهول المتاخمة لسلا والرباط ، وله بالطريقة التجانية عهد وثيق

وارتباط ، يروق للسامعين قوله ، وبالله قوته وحوله ، يميل للنكتة والمرح ،
بعدهما أزاح عن محياه القلق وطرح ، وهو من خيرة المادحين لسيد العجم
والعرب ، إذ أن صوته الجميل ما سمع إلا طرب ، إذا انشد نالت مواويله بين
الناس وطرا ، وإذا وعظ كانت مواعيزه على المنكرين خطرا ، وله في علم
السيمياء علو القدم ، مع ما يتبع ذلك من اعوان علوية وسفلية وخدم كما له
عناية بالبحث عن التبر والإبريز والذهب ، فسبحان من وهب له الفضله ما
وهب ،

وكان الغذاء المذكور بدار السيد أحمد بنعرفه ، غفر الله له من الذنوب ما
اقترفه ، وذلك بحضور جماعة من الإخوان ، منهم السيد جمال العوفير ، زاده
الله من الخير الوفير، وهو الذي أوصلنا لمحل دار الولاية ، وذلك على متن
سيارته السليمة ، فجزاه الله من كل خير ، وأمنه من كل هم وضير ، وهو من
شرب الحليب بالعسل ، ففارقه عندها التراخي والكسل ، وله في الطريقة
التجانية محبة كبيرة واعتقاد ، كما له على أعدائها انتقاد وأي انتقاد ،

انطلاق الرحلة

وكانت انطلاق الرحلة من مدينة الرباط ، بعدما احترمنا مواعيزها بكامل
الإنضباط ، وذلك قبل طلوع الشمس بنصف ساعة ، وهو الخبر اليقين دون
كذب أو إشاعة ، ثم مررنا بحي المسيرة ، فوصلناه في مدة يسيرة ، فشممنا
عنده ما شممناه من عطور ، وبأحد مقاهيه جلسنا قصد وجبة الفطور ،

وبعد ذلك تابعنا المسير بفرح وسرور، مع ما نوليه سيدنا الشريف من عناية
وبرور، ثم توقفنا بدائرة الصخور قليلا من أجل الراحة ، مع إعطاء السيارة

قسطا من الإستراحة ، ودخلنا لإحدى المقاهي هناك بنية شرب الشاي ، فشريناه على مزامير نبرات الناي ، ولكون الشريف سيدي محمد الطاهر كان لا يحب شربه بالنعناع ، وبمتنع عن ذلك غاية الإمتناع ، بناء عليه دخل الحاج أحمد السهلي للمقهى المذكورة ، وطلب من صاحبها ان يسمح له بإعداد الأتاي بنفسه ، وذلك من باب جلب سعده وطرده نحسه فلبى صاحب ذلك المقهى طلبه وما من شئ يساعده على ذلك إلا أحضره وجلبه ، وكان الفقيه المذكور ممن يتقن إعداد الشاي الرفيع ، ممزوجا بالصلاة على النبي الماحي الشفيح ، فأعده لنا بخبرته المعهودة ، ولجودته شريناه في دقائق معدودة ،

ثم اخدنا طريق مراكش طلبا للخير والنوال ، فدخلناها على الساعة الواحدة بعد الزوال ، وقصدنا لدى دخولنا إقامة النخيل ، فوجدنا قبالة بابها بعضا من الإبل والنخيل ، وهي إقامة راقية ممتازة ، لامتيل لها بمراكش وفاس وتازة ، تحيط بها الحدائق من جميع الجهات ، وتقول لصاحب الذوق تعالى خذ وهات ، مع هواء طبيعي واقى ، وماء معدني راقى ، وموقع هذه الإقامة لدى المدخل الشمالي للحمراء ، وسط طبيعة خلابة توحى بالإغراء ، وبعد دخولنا لمكان هذه الإقامة بقليل ، التقينا بسيدي محمد المهدي الشريف الجليل ، فرحب بنا وأظهر غاية السرور ، وخصنا عنده بالذنو والبرور ،

وكان في صحبته رجل وسيم ، تفوح من محياه رائحة النسيم ، واسمه عبد العزيز ، على اسم الذهب الإبريز ، فاتجهنا معا لمحل النزول ، مكثرين من الصلاة على الحبيب الرسول ، فوجدناه من الأماكن التي تنسي المرء ذكر الممات لكثرة ما فيها من البيوت والغرف والحمامات ، مع الشرف المطلة على أجمل الحدائق ، الملتفة بنظام حول مسبح رائق ،

وبينما نحن نتبادل أطراف الكلام ، دون جدال أو نقاش أو ملام ، إذ أقبل علينا الشريف سيدي جعفر أكنسوس ، وهو من شرب ينباع الأدب من أصفى الكؤوس ، وهو رجل نشيط لايعرف مللا ولا كسلا ، فغدا حديثه بين أهل مجلسنا شيقا عسلا ، واختلست كعادتي نظرات لوجهه المنور ، وتبركت بطلعة محياه المدور ، وحمدت الله الذي وفقني لمجالسة هؤلاء الأخيار ، وسألته ان يحفظ جمعنا من سائر الشرور والأغيار ،

وكان قسط وافر من مذاكرتنا منصبا حول قرية عين ماضي ، الرفيعة المقدار في الحاضر والمستقبل والماضي ، ولا بأس أن أدرج في هذا المحل قصيدة ضادية بديعة ، كنت قد نظمتها في التنويه بهذه القرية الودیعة ، وهي من بحر الخفيف ونصها :

إن ذا العمر لا محالة ماضي * فاغتنمه وامضي إلى عين ماضي
حي أرضا بها أضاءت شموع الهدى والخ * يير نعم تلك الأراضى
منبر العلم والولاية والسؤدد والفض * ل دون أدنى اعتراض
دار جود بـدا وود وعـز * واعتزاز وراحة وتراضى
أمها العارفون من كل صوب * إذ هواها يشفى من الأمراض
ليث أهل العرفان أحمد أضحى * من مواليد خيرها الفياض
تاج دار العلاء تجانينا من * سره قائم وسيفه ماضى
جده المصطفى حباه بورد * وعهود مضمونة ورياض
أكد الهادي محتواها بقول * إنني يا ابن سالم عنك راضى
نلت أسمى المنى فحدث عن البح * ر ولاضير فاقض ما أنت قاضى
يا إلهي على الممجد صل * واقض للعبد سائر الأغراض

ثم قمنا لصلاة الظهر مباشرة بعد وجبة الغداء ، فصليناه بعدما وضعنا على البساط أغطية خفيفة بيضاء ، وهذا من باب المحافظة على الطهارة المنصوص عليها ، وخوفا من الوقوع في المحذور من الأوساخ وما إليها ، ومن طريف الأشياء أننا لم نعرف القبلة إلا بعد جهد تام ، وتشعب في القول وابتداء واختتام ، وكانت مع الأخ سيدي عبد الإله بنعرفة بوصلة متميزة باهية ، تعرفنا من خلالها على القبلة بدقة متناهية ، ثم سألنا حارس الإقامة عن جهة القبلة لكي نرداد يقينا ، فأشار لنا لنفس الجهة التي أشارت لها البوصلة تعليما وتلقينا .

ثم انشغلنا بالذاكرة إلي حين وقت صلاة العصر ، وكان من رفاقنا من يصلي بالقصر ، وكانت جلسة مصحوبة بكؤوس الأتاي المشحرة ، داخل غرفة انيقة ومبخرة ، ومن غريب ما حصل ان الشريف سيدي محمد الطاهر ، صاحب السر الباهر ، لم يرقه ذلك الشاي رغم جودته المعهودة ، ونسماته الصافية الموجودة ، فأبى أن يشربه لكثرة احمر رلونه ، وقد تفاجأ لذلك معده كان الله في عونته ، ثم نهض سيدي محمد المهدي قائما ، واتجه صوب مكان المطبخ هائما ، فأعد لمولانا الشريف برادا خاصا من نوع جديد ، بعدما أحكم صنعه وإتقانه بيد من حديد ، فاعتذر الشريف وقال إنه قاطع ، وما أرى ذلك إلا من غلبة نور سناء جده الساطع ، ثم كلفنا الفقيه سيدي احمد السهلي بإعداد الأتاي لسيدنا الشريف ، فأعده له مع الضحك والفكاهة والجو الظريف ، فأقبل الشريف على الشاي بعدما كان قد شجبه ، وارتاح لشربه وراقه وعجبه ، فشرب ثلاث اكواب ، وانفتحت لنا ببركة جده جميع الأبواب .

ثم انصرفنا من ذلك النزل قاصدين مكان الندوة ومولانا الشريف معنا كنجم ساطع وقدوة ، فاتجهنا لدار الثقافة بالمدينة ، ولم أحمل معي حينها ورقة أو وثيقة ، وهي جزء من قصر الباشا التهامي الجللاوي ، ويحتوي هذا القصر البديع على الكثير من البيوت والمرافق ، وكل ما فيه لمعايير الجودة موافق ، ومن دخله يشعر بالمعنى الصحيح للضخامة ، ويعترف لصاحبه بمعالي الفخامة ، وهو متحف اجتمعت فيه فنون الصناعة التقليدية العريقة ، وعلى اختلاف أشكالها من نوع وطريقة ، وهو دليل على ما يمتاز به الصانع المغربي من جودة عالية ، وبراعة وعزيمة وفعالية.

ثم دخلنا للقاعة المعدة للندوة ، مصلين على الشفيح المشفع عدد كل عشية وغدوة ، فوجدناها مملوءة بالمدعوين يميننا وشمالا ، مما زاد حسنا على حسننا واكتمالا ، فجلست بجانب الشريف سيدي محمد الطاهر وتنسمت من ربح عيقه الزاهر ، وكان على يساري الشريف سيدي محمد المهدي ، وهو ممن إلى الخير والصلاح يهدي .

ثم افتتح الندوة سيدي جعفر الكنسوسي بكلمة مختصرة في الموضوع ، وذلك بأدب وانكسار وخضوع ، وتدخل بعده شقيقه سيدي محمد المهدي ، فقدمني تقديم الأكاير والعظام ، وذلك بكلمات ذات نسق وانتظام ، فشعرت حينئذ ببالغ الخجل، وانتابني نوع من الوجل ، وابتدأت كلمتي بالشكر لمن ساهم في نجاح تلك الندوة من قريب وبعيد ، وانني فرح بذلك ومسرور وسعيد ، ثم تماديت في إلقاء الكلمة بارتجال ، واحطت بموضوعها من باب المجال فعرفت الحضور الكريم ببعض مناقب العلامة سكيرج مع نماذج من سيرته بالإضافة لما كان يرمي له في نهجه ومسيرته ، وذكرت بعض مؤلفاته ، وجميل

مصنفاته، وتطرقت لعنايته الكبيرة بعلم التراجم ، وما يتبع ذلك من بلاغة ولغة ومعاجم، وسردت على أسماع الحاضرين مقتطفات من أشعاره البديعة، مع بعض مطالع قصائد الجميلة الوديعة، ثم ختمت الندوة بأطيب الصلاة والسلام، على الفاتح الخاتم سيد النام، ثم تدخل بعض الأساتذة الكرام بكلمات شكر رقيقة، وبها اختتم ذلك الجمع، بعدما استغرق مائة وعشرين دقيقة ،

وبعد ذلك أزحنا ما أحاط بنا من غشاء ، وتوجهنا لدار السيدة أخت سيدي محمد المهدي قصد مأدبة العشاء ، فإذا هو منزل أنيق وفاخر ، وبكل الفضائل والتحف زاخر ، فصعدنا لأعلاه بواسطة الدرج ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، وكان أهل الدار قد استقبلونا بالباب ، بما يثير الدهش والإعجاب ، وبعدها أدخلونا لغرفة عربية صميمة ، فوجدنا بها بعض من تجمعنا به علاقات حميمة ، فسلمنا على الجميع بمودة واحترام ، وطلبنا من الله أن يمن علينا ببلوغ المرام .

ثم بعد ذلك وفد من المدعوبين ما وفد ، إلى أن غص بهم البيت ونفذ ، وكان منهم جماعة ممن يحسنون فن السماع بامتياز ، دون تعصب في القول او انحياز ، فأطربونا بأشعار جميلة وأزجال ، بنظام حميد ليس فيه ارتجال ، فتمتعنا بكلام البوصيري وابن الفارض ، ودفعنا به كل الموانع والحواجز والعوارض ، والحق أنهم أتحنفونا حسا ومعنى ، حتى قلنا للعقل بالله عليك دعنا ، وكان قدومهم بعد صلاة العشاء من يوم السبت ، وهم من أهل زاوية سيدي أبي العباس السبتى ،

وبعد ذلك وضعت الموائد ، وكثرت الفوائد ، وخرقت العوائد ، فجئى بالدجاج واللحم، ومايتبع ذلك من الكبد والشحم ، مع أصناف الفواكه الطرية ، فحمدنا الله وصلينا على سيد البرية ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله مدا كل صباح وزوال وعشية ،

ولفت نظري في ذلك المجلس شخص أكال ، نكل بذلك الدجاج أي نكال، وكنت أكل معه في مجلس واحد، ليس بيننا فيه مرء أو جاحد، فدخل في ذلك الصحن دخول الأبطال، وشرب من مختلف المشروبات الغازية بالأسطال، ولما جيء بالكسكس ولجه يمينا ويسارا، وفتح فيه جبهات وانتصر انتصارا،

ثم اغار على صحن الفواكه وهجم ، فنجم عن ذلك الهجوم ما نجم ، وبعدها اعاد الكرة ثانيا بالتنقيب والبحث، فأحاط بصحن الطعام من امام وخلف وفوق وتحت ، والتفت إلي وقال : مالي اراك قليل اللقيمات ، فكم من مقل مثلك قد نحف ومات ، اسمع مني بعبارة فصيحة ، إن الدين النصيحة ، اكثر من أصناف الأكل ولاتبالي بالنوع والشكل ، فشكوت له ببعض الآلام ، فاجابني بأنها من الأحلام ، وقالي لي: من اكثر في الطعام اللقم ، لا يضره مرض أو سقم ،

وهو رجل بدين ، إلا أنه من أهل المرؤة والدين ، وله اهتمام بالنكتة والمرح ، وإليه قلبنا مال وانشرح ، وبعد انتهاء ذلك الحفل البهيج والتجمع الوضاء الوهيج ، امتطينا السيارة قاصدين إقامة النخيل ، ولم يكن معنا في تلك الرحلة شحيح ولا بخيل ، فأوصلنا سيدي احمد بنعرفة بسيارته المذكورة ، وحاله يقول لا نريد منكم جزاء ولاشكورا ، فبتنا في أمان وسلام ، وأحاطت بنا

من الفضل كل علامة ، وقد بت صحبة الفقيه سيدي احمد السهلي في بيت هادئ هاني ، بينما بات الأخوان بنعرفة في بيت قريب ثاني ، اما الشريف سيدي محمد الطاهر ، صاحب السر الباطن والظاهر، فقد بات في بيت مخصوص ، متفق على فضله منصوص ،

ولما اصبح صباح الأحد حمدنا الله الواحد الأحد ، وكان قد ألم برأسي صدام عاقه ، فلم أجد معه قوة لصلاة الصبح ولا طاقة ، فانتبهت عند الساعة الثامنة صباحا ، بعدما ذهبا الفرض والنفل وراحا ، ولدى استيقاظي من نومي الفريد ، وجدت صديقي السهلي يسرد منية المرید ، وقد وصل فيها لقوله

يعطيهم عليه معطي الفضل * وهو رقود وقت ذاك الفعل
أكثر من مائة ألف ضعف * ما اعطي العامل دون خلف

فحمدت الله على هذه الكرامة الجسيمة ، والصورة اللطيفة الوسيمة ، ثم صليت الصبح وذكرت الورد والوظيفة ، في تلك الغرفة الفسيحة النظيفة ، وبعد ذلك توجهنا صوب إحدى مقاهي المدينة العصرية قصد الفطور ، ولاتسأل عن كمية ما شمنناه وقتئذ من بخور وعطور ، واجتمعنا فيها بجماعة من خيرة الرفاق ، منهم سيدي جعفر الذي سما فوق الثريا وفاق ، وصديقه احمد الخلاصه ، من تقمص المعارف الأدبية اقتمصا ، وكذلك الأستاذ سيدي محمد بن شارف ، الذي هو من بحر اللطائف غارف ، غيرهم ،

وبعد ذلك توجهنا مباشرة لمنزل سيدي أحمد الكنسوسي ، فوصلناه على الساعة الحادية عشر صباحا ، ودخلناه ارواحا وأشباحا ، بعدما استقبلنا بالباب نجله سيدي العربي ، وقد كان في غاية من الفرح والطرب ، وله بقدم الشريف سيدي محمد الطاهر ، انشراح متزايد باهر ، فانحنى إليه بتعظيم وإجلال وقبل يديه دون تقصير أو إخلال ، ثم أدخلنا لبيت بهيج شيق ، واسع ليس بالضيق ، وبينما نحن كذلك إذ دخل علينا والده سيدي أحمد، وحرارة الشوق بادية على جبينه لم تهمد ، فقبل يد مولانا الشريف وصدرة وأنزله منزلة تكافئ مقامه وقدره ، ثم سلم عليه بعد ذلك ابن عمه سيدي محمد المهدي ، ثم العبد المذنب والفقير احمد السهلي من بعدي .

وكان اهل الدار قد هيتوا لنا فطورا من النوع الرفيع ، فحمدنا الله وصلينا على النبي الشفيق ، ثم أزاح الغطاء عن المائدة بعض أهل البيت ، فظهرت لنا صحون السمن والعسل والخليع والزيت ، مع ما حوته كبار الأرباب ، من قهوة وحليب وشاي عريق ، بالإضافة لصحون كعب الغزال والمحنشة وما إلى ذلك من أصناف الحلوى ، وأنواع الأرغفة الرفيعة من المن والسلوى ، وأثناء الفطور وضع العلامة سيدي أحمد سؤالا على مولانا الشريف ، وهو استفسار جميل وغريب وظريف ، فقال له : لمن من الناس تصاحب وترافق ، فابتسم الشريف وقال : هذا سؤال سديد موافق ، لم يسألني عنه أحد في ما مضى ، ولله الأمر والحكم والقضا ،

التعريف بسيدي أحمد الكنسوسي

وسيدي أحمد هذا هو من أكابر المعمرين ، كما أنه من العلماء الذين هم عن سواعد الجد من المشمرين ، وقد أدرك جماعة من خيرة أهل الطريقة ، وصاحب الكثير من ذوي الأحوال والمقامات العريقة ، وله تأليف عديدة ، ما بين قديمة وجديدة ، وهو رجل ذو وجه وسيم ، نحيل البدن ليس بالجسيم ، يحب المرح ، ويكره الترح ، إذا أراد النهوض أو القيام احتاج للعون ، وإن مشى فوق الأرض مشى بالهون ، يعلو وجهه ورأسه الشيب ، وتفوح منه رائحة الطيب ، زادته السكينة كمالا ، واطاف إليه الوقار وجمالا .

التعريف بابنه سيدي العربي الكنسوسي

أما ابنه سيدي العربي فهو مجمع الفضائل والأخلاق ، لا على الحصر بل على سبيل الإطلاق ، يميل للبشاشة والابتسام ، وله في ذلك وسام وأي وسام ، قليل الكلام ، كثير السلام ، مسالم هين ، متفهم هين ، ما ضن علينا بشئ أو بخل ، بل خرج بكل خير ودخل ، وهو بار بوالده أتم البرور ، مع الطيبوبة والفرح والسرور ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ،

وقد رأيت من بروره بوالده ما يثير العجب ، وإن كان ذلك مما فرض على المرء ووجب ، فجزاه الله خيرا ، ولا اراه ضيما ولا ضيرا ، وبعد انقضاء هذا المجلس وانفضاضه ، وسكون الحر الشديد وانخفاضه ، خرجنا في اتجاه ضريح العلامة أكنسوس ، وهو معلمة معالم أهل سوس ، فقرأنا الفاتحة جماعة على قبره الزاهر ، حيث افتتحها الشريف سيدنا محمد الطاهر ، ثم جادت

قريحتي بهذه القصيدة ، التي كنت قد نظمتها صباحا بعد شراب العصيدة ،
وهي :

سيدي يا ابن شعبة الأخيـارا * سـليـلا لجـعـفر الطـيـار
قد حباك المختار منه بحب * يـه ما فيـه من سـنا الأـنـوار
أنت من أشرف الخلائق دارا * أنت من آل بيته الأطهار
أنت من سادة عظام كرام * زينبي من طينة الأحرار
أنت ياايها الفقيه إمام وهم * ام لـدى ذوي الأـنـظـار
ولسان الطريفة الأقوم الحام * بي حماها من ربة الإنكار
كم لكم من مناقب قد تساوت * في علاها بطالع الأعمار
لك من خالص التحية شكر * طول وقت الزمان والأعمار
لك في مدحه العظيم أناشيد عـ * ظام من خالص الأشعار
حجة الدين أنت دون اعتراض * وافترض بسائر الأقطار
تتباهى الحمراء فخرا وعزا * بعلاك المعظم المقدار
بين شرق ومغرب وشمال * وجنوب وشاسع الأمصار
في معاني علاك حارت ودارت * واستنارت معالم الأفكار
شيخك العارف التجاني أضحت * داره العظمى فوق كل الديار
جعل الله فيضه الباهر الأسم * سى علينا من جملة الأستار
أي فخر يحق للمراء إن لم * يفتخر صادعا بهذا الفخر
وتمادت أمداده الغر فينا * أبدا دوما كالغدير الجاري
وصلاة على النبي الذي منـ * له أضاءت خلائق الجبار
وسلام عليه ما فاح عطـ * ر المسك بين الورود والأزهار

ثم بعد ذلك وقفنا على قبر ولده الأول سيدي عبد الله ، وقلت في حقه :

أبدا لست مغرما بالمال * لاولا بالزرجد المتلالي
إنما معرم قديما بعبد الله ن * جل المؤرخ المفضال
صاحب الجيش والجواب الذي أسد * كت بالبينات أهل الضلال

ثم بعد ذلك وقفنا على قبر ولده الثاني سيدي العربي ، وقلت في حقه :

أيها الشهم يا سليل المعالي * سيدي صاحب المقام العالي
أنت ياذا الخلال نعم إمام * في جمال الأئمة الكمال
فزت بالخير والمنتى ويداك الغد * ر عادات بغاية الآمال

ثم بعد ذلك وقفنا على قبر حفيده سيدي محمد المهدي بن عبد الله ، فقلت في حقه

سيدي يا محمد ال * مهدي الفائز بالفتح والبها والجمال
نلت أسمى المقام لما تساوت * عندك الواردات بالأحوال

ثم توجهنا صوب حي المواسين بالمدينة القديمة ، قصد زيارة الزاوية الأحمدية التجانية الفخيمة ، فإذا بها زاوية عتيقة ومنورة ، على وفق ما كانت به في ذاكرتي مرسومة ومصورة ، فدخلتها باحترام وأدب ، بعدما سلب عقلي حبها وجذب ، فقلت في حقه :

إذا ما جئت للحمراء فاقصد * على الإخلاص مولانا الفقيهها
بباب الرب روضته التي قد * ثوى الإكرام والإقدام فيها
محمد بن أحمد من قد أضحي * إماما عالما حرا نزيها
وعج شطر المواسين حيث علت * قباب قد سمت ركنا وجيها
بها دار تسامت في بهاء * وفضل الله دوما يعتليها
بها النوار والأسرار طافت * وأضحت بالمعارف تحتويها
عليها حلة الإبريز رغما * على كل الأعادي ترتديها
غدت بالفخر ترقص في سرور * وتاهت عن علا الأكوان تيهها
سفينتها أمان للبرايا * فلا يخشى العنا من يمتطيها
ويحضى بالسلامة والأمانى * ونيل المرتجى من يقتديها

فكم من المريدين من فتح عليه بها وانتفع ، وكم ممن سما فيها قدره الجليل
وارتفع ، وقد نبغ من رجالها الكثير وظهر ، وفاق وعلا صيته و اشتهر ، فكم
عمرها من السادات الأمجاد ، ما بين راعع وقائم وساجد ، فهو المحل الذي
كان ولازال ضامنا ومن دخله كان آمنا ، فرحم الله بانيها ومشيدها ، إمام هذه
الأسرة الكنسوسية وسيدها ، أبا عبد الله سيدي محمد أكنسوس ، وقتئذ :

لست من بهجة ولست بسوسي * بل سباني ابن أحمد الكنسوسي
حبه الصافي في مكا من ديني * وبيقيني من أفضل المغروس

وبعدما صلينا الظهر بهذه الزاوية الجليلة المعظمة ، انطلقنا صوب السيارة وفق جولتنا المرتبة المنظمة ، فقصدا عندئذ قبر العلامة القاضي الحاج احمد سكيرج رضي الله عنه ، وهو مدفون داخل ضريح القاضي أبي الفضل عياض ، ففرحنا كثيرا بوصولنا لذلك الرياض ، ثم قرأنا الفاتحة على روحه الشريفة ، واستظلنا بظلاله الوريفة ، وكانت تلك الساعة ساعة حميدة ، أحسسنا فيها براحة جديدة ، وتوالت علينا فيها بركات عديدة ، وذهب عني ما كنت أشعر به من تعب ونصب ، حتى كأنني بالجنة في بيت من قصب وشممت وقتها من عطر البخور مختلف النفحات ، وعلمت يقينا أن الله قد طوى عني سعى الصفحات ، فسألته العفو والعافية مهما صدر مني وحصل ، وفارقني عندها الشؤم والهم وانفصل ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وهو خير من أبرم العهد والوعد.

وهنا كمل المراد من تدوين هذه الرحلة الجليلة ، بعدما أبرأت ببهجتها كل ذات عليلة ، ونسأله بها أن يمن علينا بنعمه الوافية ، وإمداداته الإضافية ، وأن يرزقنا الفهم ، ويدفع عنا الوهم ، وفي هذا القدر كفاية كافية ، فنحمد الله الذي لا تخفى عليه خافية ، والسلام.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.